مع المعصومين

إيثار ووفاء

تأليف: سرور كتبي
ترجمة: خالد توفيق
رسوم: مصطفي ندرلو

قسم الأطفال والناشئين في مؤسسة البعثة

مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة

اسم الكتـاب: ايثار ووفاء (من سلسلة مع المعصومين ـ بالاعتماد على نبذة من حياة الإمام الحسن المجتبى(ع))

المؤلف: سرور كتبي

المترجم: خالد توفيق

الرسام: مصطفى ندرلو

إعداد: قسم الأطفال والناشئين في مؤسسة البعثة

الطبعة: الأولى ١٤١٤ هـ.ق

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

العنوان: طهران ـ شارع سمية ـ ١٠٩

هاتف: ٨٨٢٢٢٤٤ ـ فاكس: ٨٨٢١٣٧٠ (٠٢١)

تلكس: ٢١٢٠٨٠ BSAT.IR ـ صندوق بريد: ١٣٦١ ـ ١٥٨١٥

حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأرض مُحرقة والسماء كأنها ترمي بالحمم والصواعق. أصوات هادئة لصراصر وجنادب[1] تبعث بأزيزها من بين الأشواك الصحراوية.. ثلاثة رجال انحدروا من أعلى الهضبة مخلِّفين وراءهم سحباً من الغبار المتصاعد في الهواء.

وقف أحد الرجال الثلاثة أسفل الهضبة... أماط اللثام عن وجهه.. ثم قال بلهجة يشوبها التعب والإرهاق:

مضت ساعات ونحن نبحث في هذه الصحراء عن قطرة ماء.. ولكن دون جدوى!

دقق الرجل الثاني النظر في انحاء المكان... إنَّه متعب والعرق يتصبَّب من جبهته... أمسك بقبضةٍ من تُراب الأرض.. رفعها إلى مستوى النظر... ثم نثرها في الهواء وهو يقول بهدوء:

(١) الجنادب: الحشرات الصغيرة التي تبعث أزيزاً وأصواتاً خاصة.

إنها أرض جافة ولا أثر للماء فيها.. قد يكون مصيرنا الموت في هذه الصحراء عطشاً!

الرجل الثالث غالَبَ تعبه ودار بصعوبة حول الهضبة...

سار الرجلان الآخران في أثره.. الأرض حارَّة وهي مُغطاة بالرمل الناعم.. غاصت أرجل الرجال في الرمال حتى الرُكب... إنهم عطاش ... عُيونهم تَتَلَفَّت في أرجاء المكان بحثاً عن شيء ما... ولكن دون جدوى...فالصحراء الساخنة تمتد في كل جهة بامتداد النظر!

رفع أحد الرجال يده إلى ما فوق عينيه فجأة، وصوَّب ببصره نحو نقطة معينة في الصحراء... ثم أشار بيده وصاح:

أنظروا!

كان في آخر الهضبة.. عدد من اشجار النخيل.. سعفاتها الكبيرة تنحني على بركة ماء صغيرة.. وثمَّة شاة تتمدَّد إلى جانبها. على الجهة الأخرى من هذا المشهد بدت خيمة صغيرة متواضعة، وعجوز تجلس منحنية بيدها مغزل.

تحرك الرجال الثلاثة بسرعة نحو المكان.. خافت العجوز عندما شاهدت الرجال.. نهضت... ثم أمسكت بيديها عصا وأخذت تُحرّكها في الهواء كمن يستعد للدفاع عن نفسه.

بادر أحد الرجال للقول:

يا أمة الله... لا نقصد الإساءة إليك، إنما نحن مسافرون أصابنا العطش والجوع!

بعد لحظة من التردد نظرت العجوز إلى الرجال، ثم قالت:

تُرى من أنتم؟

نحن من حجاج بيت الله الحرام.

قال الرجل.. ثم أضاف:

إذا سمحت بشيء من الماء نكون لك من الشاكرين.

ولكن.. كيف تذهبون إلى بيت الله الحرام مشياً على الأقدام؟

أجابها الرجل بعد أن طأطأ برأسه إلى الأرض:

لقد عاهدنا الله أن نذهب إلى بيته مشياً على الأقدام.

أنزلت العجوز العصا إلى جانبها وقالت:

إن بيتي مفتـوح دائمًا لُحجاج بيت الله الحرام... أُدخلوا الخيمة واستريحوا بعض الوقت.

دخـل الرجال الثلاثة الخيمة... حَلبت العجوز الشاة.. حملت إناء اللبن ودخلت الخيمة:

إنَّ شربكم الماء في مثل هذه الصحراء الحارَّة يؤذي عيونكم.. جئت لكم باللبن حتى يمنع عنكم العطش والتعب.

شرب الرجال الثلاثة اللبن باستمتاع. بعد لحظات خاطبتهم العجوز قائلة:

أنا وزوجي نعيش مُنفردين في هذه الخيمة.. إنه يذهب في الصباح الباكر.. يجوب الصحراء، ولا يعود إلا وقت الغروب... إني أعرف بأنكم جياع.. ولكن ليس في الخيمة ما أُطعمكم منه...

قالت العجوز ذلك ثم صمتت.. وفي هذه اللحظة وقع بصرها على الشاة الرابضة في ظل الخيمة... هبَّت نسمات الهواء وأخذت سعفات النخيل تتمايل ذات اليمين وذات الشمال.. قالت المرأة تخاطب نفسها:

إذا ذبحت الشاة سأستطيع أن أُحضر لهم الغذاء.

تحركت العجوز بهدوء نحو الشاة... نهض أحد الرجال واتجه نحو بِركة الماء يريد الوضوء... نظرت العجوز إليه... لاحظت أن يديه ورجليه ترتجفان ولونه قد تغيَّر... فقالت المرأة بقلق:

لماذا ترتعش هكذا!... هل أنت متعب وجائع إلى هذا الحد؟

كلا... ولكني أريد أن أقف بين يدي الله...

أنعمت النظر اليه.. إنَّ وجهه يذكِّرها بشيء ما ... قالت العجوز لنفسها:

أين رأيت هذا الرجل قبل ذلك، يا ترى؟

وجهه أبيض مائل إلى الحمرة... شعره مجعّد.. سواد عينيه صاف

كلون ليل الصحراء... يبعث منظره في قلب العجوز ذكرى أيامها في الطفولة... إنها تذكر ذلك اليوم الذي كانت فيه أمها تصعد النخلة وتقطف لها ما نضج من التمر.. في ذلك اليوم كان النخل يعبق بعطر خاص وكأنه قد تجمعت فيه عطور الأشجار الخضراء في كل الدنيا.. وفي لحظة من ذلك اليوم الشذي الذي يمْثُل أمامها الآن.. جاء أبوها يركض ثم وقف إلى جانب النخلة وصاح:

عنـدي خبر مفـرح.. لقد ظهر رجل يسمى «محمد».. إنه يدعو إلى نبذ الأصنام وإلى عبادة الله الواحد الأحد.. إنه يمقت عادة وأد البنات وينهى عن قتلهن ودفنهن حيَّات.. إنه رسول الله... أرسلته السماء إلى الأرض بالخير والبركة والهداية!

تنفست المـرأة العجـوز بعُمق... ثم نظرت إلى الـرجل مرة أخرى وهي تخاطب نفسها:

من هو هذا الرجل يا ترى؟... لماذا يُذكِّرني مرآهُ بتلك الأيام؟

رفع الرجل رأسه:

يا أمة الله... بماذا تُفكرين؟

التفتت العجوز إلى نفسها وقالت:

أنا؟

ثم أضافت:

أريد من أحدكم أن يساعدني على ذبح الشاة كي أُهيّئ لكم الطعام.

لا...لا تفعلي ذلك... إذا عاد زوجك من الصحراء ولم يرَ الشاة، فماذا تقولين له؟

رفعت المرأة العجوز رأسها بشموخ وأجابت:

إن زوجي لا يدع أحداً جائعاً في هذه الصحراء.

قام أحدهم بذبح الشاة.. هيأت المرأة الطعام بسرعة... بعد أن شبعَ الرجال الثلاثة غادروا الخيمة... تقدَّم أحدهم من المرأة قائلاً:

نحن نفر من قريش، فإذا عدنا من الحج فائلي بنا، فأنا صانعون بك خيراً.. والان أين الطريق إلى مكّة؟

أشـارت المـرأة العجوز إلى الجهة الغربية من الصحراء...كانت الشمس تُلملم آخر خيوط أشعة المغيب... سار الرجال الثلاثة تاركين وراءهم المرأة العجوز.. وهي تتأمل شمس الغروب!

بعد لحظات وصل إلى سمع المرأةصوت كأنه ينطلق من قلب الصحراء... إنّه صوت زوجها:

أين أنت أيتها المرأة... اجلبي لي قليلاً من اللبن لأروي عطشي وأستريح من تعبي... ألا تعرفين أني عطشان وتعبان!

ارتجف جسم العجوز والتفتت بخوف تنظر إلى مكان الشاة الخالي.

عاود الرجل الصياح:

أرى الإناء خالياً من اللبن... لماذا لم تحلبي الشاة حتى الآن؟

أخـذت العجوز الإناء الخالي وتحركت نحو بركة الماء... ملأت الإناء ماء وقدمته إلى زوجها...

صاح الرجل عندما رأى الإناء مملوءً بالماء:

ألا تعرفين بأني لا أستطيع أن أشرب الماء في هذه الصحراء الحارة المحرقة... اذهبي سريعاً واجلبي لي قليلاً من اللبن!

قالت المرأة بإرتباك وبلا وَعي:

لا أدري... الشاة... لقد قمت...

لم يدعها تكمل كلماتها المرتبكة، وإنما نظر الرجل إلى جهة النخيل فوقع نظره على مكان الشاة الخالي... قال بحيرة:

أين الشاة؟

نظرت المرأة باتّجاه مغرب الشمس.. ثم قالت بهدوء:

كانوا ثلاثة رجال.. عطاش جياع... نفدَ ما كان عندهم من طعام وشراب... أعطيتهم اللبن فشربوه.. ثم أمرتهم أن يذبحوا الشاة.. وقد قمت أنا...

ماذا تقولين؟... هل صحيح ما أسمعه؟... هل ذبحت فعلاً شاتنا الوحيدة من أجل ثلاثة من الغُرباء؟

أجابت العجوز وعيناها ما زالتا تنظران إلى جهة المغرب:

لا... إنهم لم يكونوا غرباء... كنت أرى في وجه أحدهم شيئاً أعرفه... كانت تتلألأ على صفحات وجهه أنوار الأنبياء ومهابة الرجال الكبار!

لم يحتمل الرجل بل صاح:

ماذا تقولين... تُرى من يكون هذا الرجل؟

أجابت المرأة العجوز وكأنها تحدث نفسها:

إنَّهُ يشبه محمداً رسول الله!

لطم الرجل على رأسه بكلتا يديه وصرخ:

هل جُننت أيتها المرأة... أغاب عن بالك أنَّ رسول الله قد غادر هذه الدنيا منذ سنوات... هل نسيت ذلك اليوم الذي نثرت فيه شعرْك وشددته حزناً...؟

أقسم بالله أني لم أنس بعد ذلك اليوم.

واصل الرجل صياحه:

إذن أنت تُوهميني بأنك مجنونة كي تأمني عقابي... لم يكن لدينا سوى هذه الشاة وقد راحت من أيدينا...

رفعت المرأة رأسها إلى أعلى وقالت:

لو كان عندي ألف شاة لذبحتها جميعها لهم!

فأطرق الرجل استحياءً. وإن لم تفارقه علائم الغضب

* * *

أصوات أجراس «الجمال» تُسمَع في المدينة. أشعة الشمس تُشرق على سعف النخيل. ذرات الغبار والتراب التي أثارها الهواء ترتفع في الجو برفق وتتناثر على شعر العجوز الأبيض.. كانت العجوز مُنحنية تلتقط بسرعة نوى التمر من الأرض وتجمعه في سلَّة بيدها. أهالي المدينة يمرون في الأزقَّة بسرعة.

رفعت المرأة العجوز رأسها ونظرت إلى السماء...لقد استقرت الشمس الآن في كبد السماء... نظرت إليها وأخذت تحدث نفسها:

لقد انتصف النهار وأصبحت الشمس في منتصف السماء... ولكنسلني لمتمتلىء إلى نصفها بعد!

طير رمادي اللون حطَّ إلى جنب المرأة العجوز.. وأخذ ينقر نوى التمر. نظرت العجوز إليه وقالت:

أنت أيضاً تبحث عن نوى التمر... ولكن لا أدري هل تبحث عنه لتبيعه و تقضِ حاجاتك اليومية!؟

دار الطائر حول نفسه ثم عاد ينقر الأرض.. قالت العجوز:

أعلم أنك جائع ومضطر للبحث عن غذائك بين نوى التمر.. آه لو كان لدينا مكان نأوي إليه لأخذتك معي وأطعمتك من الحنطة والشعير... ثم أجلس إلى جانبك لأصنع السلال من سعف النخيل... كما كنتُ أفعل في سالف الأيام.

تأوهت المـرأة العجوز وغرقت في أفكارها الخاصة... التقط الطائر غصناً صغيراً بمنقاره ثم طار ليحط على حائط طيني قديم... وضع الغصن عليه... هبَّت نسائم الهواء فحملت معها الغصن الصغير... انتبهت العجوز إلى نفسها... مسحت العرق المتصبب من جبهتها بظهر يدها...وانحنت إلى الأرض مرة أخرى وهي تُحدث نفسها:

كل ما كان قد مضى... لكني غير نادمة على ما فعلت... لقد ذكَّرني ذلك الرجل برسول الله(ص)...ما أعظمه!... لقد وعد ربه أن يحج مشياً على الأقدام... وعندما وقف إلى الصلاة كان جسده يرتعش خوفاً من ربه... لقد أحسست به في تلك اللحظة مثل صفحة الماء التي تتلألأ على حافاتها أشعة الشمس... لقد كان هالة من نور!

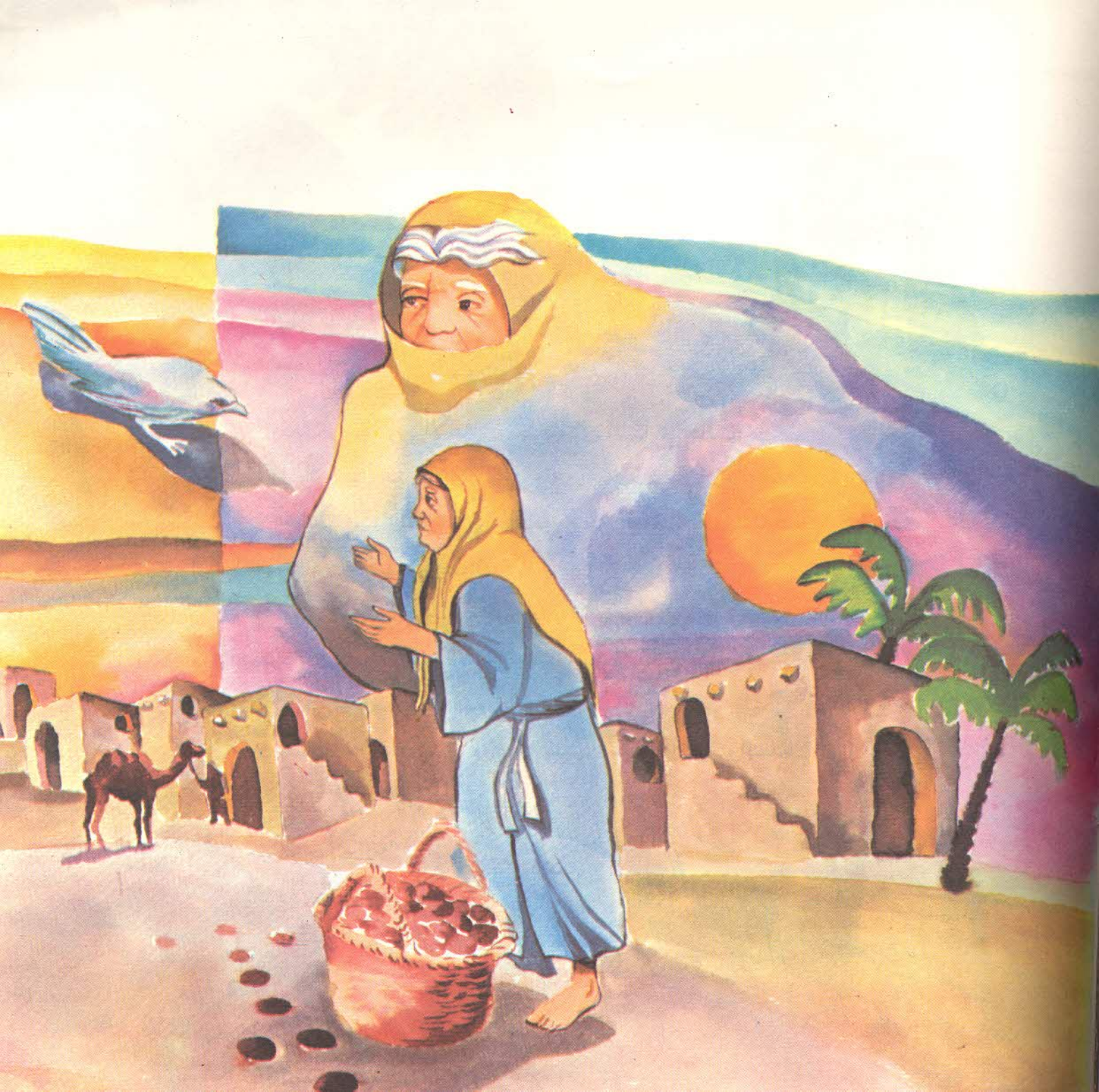

رفعت رأسها إلى الأعلى... نظرت إلى السماء... قالت:

يا إلهي! من هو ؟

أحست المرأة فجأة أنَّ هناك من ينظر إليها... أخفضت عينيها... التفتت إلى ما حولها... بدأ قلبها يرتجف!

جلس رجل على ركبتيه إلى جانب العجوز وهو يحدِّق إليها ... وجهه أحمر وعيناه سوداوان كليل الصحراء... إنتبهت المرأة وقالت بخوف:

يا إلهي! خلّصني من هذه الأحلام... هذا خياله ينظر إلى...

نهضت من مكانها... وضعت سلتها على عاتقها وابتعدت عن الرجل بسرعة!

نهض الرجل، قال:

رويدكِ... تمهَّلي يا أمة الله.

وقفت المرأة وهي مبهوتة.

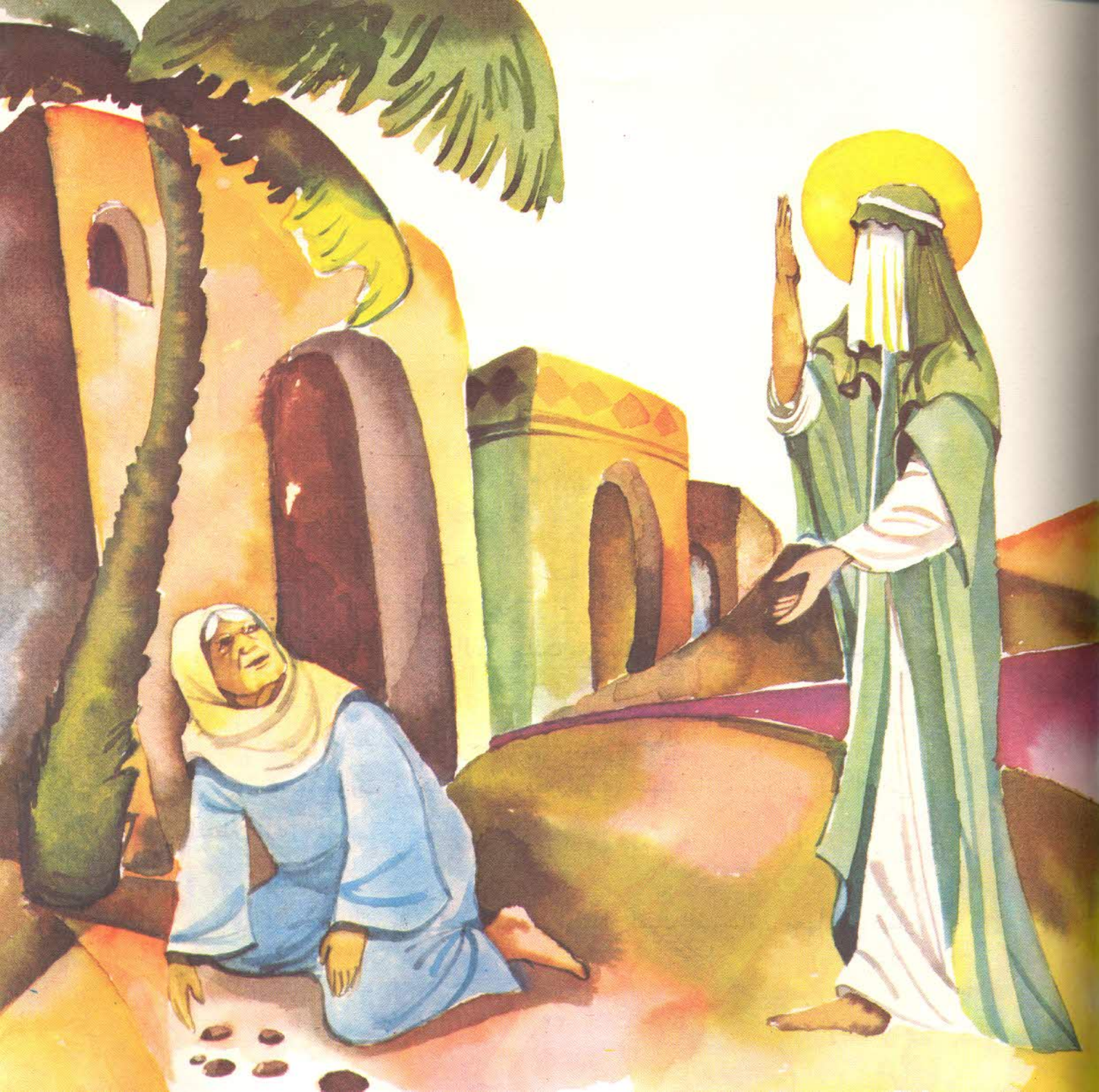

هل عرفتيني؟، سأل الرجل.

بصوت مرتجف.. قالت:

لا... من أنت؟

أنا... أنا ذلك الرجل الذي حللت مع رفاقي ضيفاً عليك في تلك الظهيرة!

بخوفٍ قالت:

بحق الله عليك.. هل أنت ذلك الرجل أم خياله!؟

عندما مررت في هذا الزقاق وقع نظري عليكِ وأنت منحنية إلى الأرض تلتقطين نوى التمر...

قال ذلك أضاف :

لقد حان الآن وقت استراحتك... أريد أن أهبك ألف شاة... معها ألف دينار

ذهبي.. هل تقبلين مني هذه الهدية؟

ردّت المرأة بذهول وحيرة:

ألف دينار ذهبي!.. لكن من أنت؟

عبدٌ من عباد الله حل يوماً ضيفاً في بيتك!

قال ذلك... ثم أخرج رُقعة كتب عليها... وأعطاها إلى المرأة... وواصل مسيره.

صاحت المرأة العجوز بتوسل:

من أنت... من أنت...!

مرَّ في هذه اللحظة رجل عبر الزقاق... التفت إلى المرأة العجوز وقال لها بدهشة:

كيف لا تعرفين هذا الرجل!... إنّه الحسن بن علي وفاطمة الإمام الثاني من أئمة أهل البيت! إنه حفيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

تحركت العجوز من مكانها... شيَّعت بنظراتها الإمام الذي كان قد وصل الآن إلى آخر الزقاق، قبل أن يختفي عن مدى النظر.

هبت نسائم الهواء وهي تعبق برائحة التمر قبل أن تبث أريجها عبر أزقة المدينة... مدينة رسول الله.